في سجن دار الملاحظة للأحداث

الموقوفون متهمون بتفجير عبوات وخطف وقتل وتسليب

بدأ يتسرب الى نفسه الهدوء ويزدهر بذكريات مخصبة بعبق المكان، بل صار يحس انه لم يعد وحيداً كما كان، بعد ان بعثرته الرقابة المحدقة به طوال الوقت، مع اصدقاء لم يتوقع يوما انه سوف يلتقي بهم صدفة، في غرفة مظلمة مطلة على فناء ضيق، تكاد اشعة الشمس تخترقها بصعوبة. عندما رأيته اول مرة كان هادئا ، وخجولا، اعتلت عيناه نظارة طبية كان يحاول من خلال تكرار حركة يديه، برفعها تارة وتارة اخرى بخلعها، جذب الانتباه. ولكن ماذا حدث لهذا الصبي الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره؟ الصبي الذي تبين أنه متهم بجرائم يكاد يدخل من خلالها كتاب غنيس للارقام القياسية. فما الأسباب التي دفعته ليكون مجرما يقترف القتل والتهجير بأبشع الطرق الاجرامية؟ شخص من الدار همس بصوت خافت وقال تكلموا معه، تقربت منه و سألته ما اسمك؟ اجابني اسمي ..... انا هنا منذ ما يقارب السنتين. لم ارتكب اي جريمة او فعل مشين. كان صوته مبحوحا، ونطق الكلمات يحمل معاني صعبة الفهم. طلبنا من الادارة تركنا لحظات للتكلم على انفراد ولنفهم ما يريد ان يقول. بصراحة وجدت فيه الاصرار والصلابة والعناد، وقال انا عراقي، ولا يمكن للحلم ان يموت حين يكون قرين ارادة طليعة، وأنا لم افعل شيئا ليلقى بي هنا في هذه الغرفة المظلمة، والعفنة، والرطبة. لا اريد ان اقضي اوقاتا طويلة، اريد الخروج والاستمتاع بلعبة كرة القدم، فقد كنت في فريق الاشبال وكان مدربي شيخ المدربين (عمو بابا)، اضافة الى انني من العشرة الاوائل في مدرسة المتميزين الواقعة في منطقة ( ). وفجأة توقف عن الكلام، وكان القلق يؤرق باله، ثم عاد ليقول: انا لا اعلم لماذا حجزت في هذه الزنزانة، هم يقولون انت متهم بعدة جرائم انا لم اقترفها، ولا يوجد دليل ملموس ضدي، وانا سوف اخرج عن قريب واعود الى عائلتي. حالة هذا المتهم الصغير(١٦ سنة)، ليست الحالة الوحيدة في دار الاحداث التي زرناها للاطلاع على وضع نزلائها، وعلى البناية ذاتها. دار الاحداث (الملاحظة) دار كبيرة وتحوي ما يقارب التسع زنزانات، بعضها كبير المساحة والآخر صغير. الزنزانة الكبيرة تتسع لعشرة او ثمانية متهمين، والاخرى تتسع لاربعة. الاحداث المحكومون بجرائم مختلفة يكون حبسهم في هذا الدار، ومن ثم بعد ذلك يحالون الى المحاكم المختصة، بعد تطبيق عدة اجراءات قانونية تكون وافية الشروط لاطلاق سراح من لم تثبت التهمة الموجهة اليه، فيما يحاكم الآخرون ويحالون الى دار الكرخ للاحداث.

بغداد/ ايناس طارق
تصوير: مهدي الخالدي

بناء سور

بعد انتظار استمر ما يقارب الربع ساعة في غرفة مدير الدار نعيم نايف، وكان خلال ذلك يشرف على الترميمات وعملية بناء سور عال يحيط بجميع اجزاء الدار كجزء من خطة امنية للحفاظ على سلامة السجن ، التقيناه وتحدث لنا عن الشؤون العامة في هذه الدار قائلا : الحقيقة انا عينت في هذه الوظيفة قبل نحو أربعة أشهر، ومن اولويات العمل هو بناء سور عال لزيادة الطاقة الامنية للدار، ومنع حدوث تجاوزات امنية. والجميع يعلم ان الدار واقعة في منطقة سكنية مكتظة بالسكان، وملاصقة لدور المواطنين، وهذا ما يجعل من التفكير بعملية هروب للحدث أمرا ممكنا. وأضاف نعيم: حاليا الدار تحتجز ما يقارب ٢٤٢ حدثا، اعمارهم تتراوح بين الثامنة الى الثامنة عشرة سنة، يتم حبسهم في دار الملاحظة (على ذمة التحقيق)، وبعد عرضهم على المحاكم المختصة واصدار الحكم القضائي النهائي بحقهم يحالون الى دار الكرخ للاحداث، ثم بعد بلوغهم سن الثامنة عشرة يسفرون الى سجون وزارة العدل. وأكد نايف ان الدار حاليا تستقبل الاحداث المتهمين بجريمة (٤ ارهاب) التي تتضمن القتل، التفجير بعبوة، الخطف، التسليب. والمتهمون يرسلون الينا اما عن طريق مراكز الشرطة، او الجيش العراقي، او القوات المتعددة الجنسية. اما جرائم السرقة فقليلة، ولا يوجد سوى طفلين تتراوح اعمارهما السابعة والثامنة، قبض عليهما متلبسين بسرقة اجهزة تسجيل صوتية من بعض المحال التجارية في منطقتهم السكنية.

مشاكل الجيران

وأشار نعيم الى صعوبة مواجهة المشاكل التي خلفتها الادارة السابقة، التي تسببت في فساد اداري كبير من حيث الاتفاق مع المحال التجارية المحيطة بالدار بادخال انواع مختلفة من المشروبات والاطعمة. وهذا الفعل بحد ذاته جريمة يعاقب عليها القانون العراقي الذي لايسمح بادخال اي شيء كان بدون خضوعه الى التفتيش الامني لادارة السجن، وضمن اوقات الزيارة الرسمية المسبوقة بموافقة قاضي التحقيق. لهذا عندما تسلمنا ادارة الدار طلبنا من اصحاب الدور، والمحال التجارية القريبة جدا، بتوقيع تعهد خطي يتضمن عدم قيامهم بمساعدة اي حدث مسجون، ويكون ذلك بالاتفاق مع احد المراقبين في السجن. وللعلم فقط ان هذه التعاملات كانت تعقد بين عائلة المتهم وأحد المراقبين الامنيين، اضافة الى صاحب المحل التجاري وبعد انتهاء اوقات الدوام الرسمي للادارة. ولكن مع الاسف ثبت تورط الادارة السابقة في مثل تلك الامور.

الزنزانات

بعد ذلك تجولنا بالدار للاطلاع عن كثب على احوالها ومشاكلها وحياة الاحداث الموقوفين فيها. لاحظنا أن الممرات تعلو جدرانها الرطوبة، على الرغم من محاولة الادارة طلاءها قبل فترة معينة، وهذا واضح من نظافة الجدران الداخلية، ولكن الحقيقة، كما يقال، السجن سجن. بوابة الزنزانة يتوسطها قفل حديدي كبير، وفوق هذا القفل فتحة صغيرة تسمح لرؤية خاطفة للمراقب الامني، نهارا و ليلا. وضمن جولتنا هذه داخل الزنازين التقينا بعدد من السجناء، بعضهم كان يريد التحدث شاكيا الادارة، لعدم سماحها لهم بالاتصال بذويهم لاخبارهم بانهم محجوزون في هذا السجن. والبعض الاخر قال العكس، ان الادارة تسمح لهم بالاتصال الهاتفي بين حين وآخر. ويقول الحدث المتهم ..س.... البالغ من العمر ستة عشر عاما انا وأخي الاصغر هنا منذ ما يقارب السنة والنصف، وعائلتي لاتعلم بمكاني. قبض علينا عندما انفجرت عبوة ناسفة على سيارة شرطة، وانا وأخي كنا نسير في الشارع، ولم نفعل شيئا. نريد الخروج من هنا، نريد العودة الى المدرسة، واذا كنا متهمين لماذا لم نحاكم الى هذا الوقت؟ لقد ضاعت فرصتنا في اكمال المرحلة المتوسطة، سنتين متتاليتين، فما مصيرنا؟ هل نبقى دون محاكمة؟ بينما علق الحدث ...م... البالغ من العمر١٥ عاما قائلا: تهمتي كانت زرع عبوة ناسفة على مدرعة امريكية، وانا لم افعل ذلك. وبسبب الاعتقال العشوائي الذي حدث اثر الانفجار احتجزت في مطار بغداد. وقبل سنة رحلت الى هنا، وقبل اسبوع قابلنا الباحث الاجتماعي لاكمال التقرير الذي يرفع الى المحكمة، بعد ان طلبت المحكمة تلك قضايانا لعرضها على القضاء. نريد الخروج بسرعة فأنا طالب في الخامس الادبي. الحدث ...ع...البالغ من العمر١٧ سنة، له قصة أخرى. فهو متهم بجرائم عديدة قاربت الثلاثة والأربعين جرما مختلفا (قتل، تهجير، خطف). لقد قبض عليه في منطقة المحمودية بالصدفة. لم ارتكب جريمة تثبت ادانتي، قال. فقط اعتمد على شهادة الشهود، وقبل المجيء بي هنا احتجزت في المطار من قبل القوات المتعددة الجنسيات لمدة سنة تقريبا. والآن انتظر عرض اوراقي على المحكمة المختصة، وأنا متأكد من براءتي لعدم وجود ادلة جنائية تثبت التهم الموجهة ضدي.

مع المدير مرة أخرى

وهنا توجهنا بالسؤال الى مدير الدار نعيم نايف، واستفسرنا عن مصير هؤلاء الاحداث الذين طال بقاؤهم في السجن، ولم تعرض قضاياهم على المحاكم المختصة حتى الآن. قال إن استتباب الوضع الامني ساعد بصورة كبيرة في الاسراع بالحكم على انواع عديدة من القضايا، اضافة الى عدم كفاءة الادارة السابقة، وهذا ليس كلامي لانني المدير الحالي للدار، انما الكتب والتقارير التي رفعت من وزارة العمل هي التي تؤكد ذلك. كانت الادارة السابقة تتعمد احيانا عرض بعض القضايا لاسباب تتعلق بأمور كثيرة. يمكن تلخيصها بكلمتين (فساد اداري)، لهذا ارتأت وزارة العمل أن تقوم بتغيير الكادر الموجود في الدار، وذلك للوقوف على الاسباب، وخلفية بعض الامور التي كانت تحدث. عملنا بعد تسلم زمام الامور، وبمساعدة كبيرة من وزارة العمل، على النهوض بواقع الدار من حيث الترميم اولا، وثانيا العمل على الاسراع بعرض الاحداث المتهمين على القضاء. والنقطة المهمة هي أن استيعاب الدار فاقت طاقتها، ما اضطرنا الى افتتاح مطعم وتجهيزه بأسرة وأفرشة لاستيعاب اعداد الاحداث المتهمين. وحاليا يتم الحكم على من لم تثبت ادانته بالتهم الموجهة اليه بالبراءة، من قبل قاضي التحقيق في المحكمة المختصة، او يحكم الشخص اذا ثبتت التهم الموجهة اليه، ويحال الى دار الكرخ للاحداث. لان دار الملاحظة هو سجن توقيفي فقط، ونظرا للظروف الامنية تأخر النظر والحسم القضائي لبعض من القضايا الخاصة بالأحداث.

اجراءات التسليم

وبينما كنا نتحدث مع نعيم ونسير في الدار، قدم الى الادارة ضابط من مركز شرطة الكاظمية، ويحمل أوراقا توقيفية بحق الحدث المتهم، احمد، الذي يبلغ من العمر اربعة عشر عاما، وأطلعنا مدير الدار على اجراءات التسليم التي تتم من قبل الادارة. اولا: يسأل الحدث عن اسمه الكامل، ويقارن مع اسمه في هوية الاحوال المدنية، ثم يقرأ محضر القبض وأسبابه من ناحية التهمة والفعل، اضافة الى تفتيش جميع اجزاء جسده للتأكد من عدم تعرضه الى ضرب او تعذيب. وبعد ذلك نوقع على تسلم الحدث. وهنا سألنا احمد عن تهمته فأوضح أنه كان حادث دهس لرجل كبير في السن، بعربة ستوتة في منطقة الكاظمية، وهذا الحادث ادى الى وفاته. وأكد نعيم نايف ان حوادث الدهس بالنسبة الى تهمة (اربعة ارهاب)، تعتبر بسيطة جدا، ويمكن حلها بعد التفاهم مع المجني عليه ويبقى الحق العام، وهو مدة تحدد من قبل القاضي المختص.

الحمامات

تعتبر الحمامات الواجهة الرئيسية لكل مرفق حيوي، وما شاهدناه في دار الملاحظة للاحداث يستحق الملاحظة والوقوف. كما أسلفنا فالسجن يحتجز ما يقارب ٢٤٢ حدثا، من مختلف الاعمار، والقدرة الاستيعابية للحمامات لا تكفي حتى لعشرة اشخاص. كان وصولنا الى قسم الحمامات في الساعة الثانية عشرة والنصف، وعندما اردنا الدخول الى الحمامات وجدنا ما يشبه التظاهرة، كل يحمل منشفته وينتظر دوره، والوقت وقت صلاة. ولا يخفى ما شاهدناه كان بعيدا عن اي مظهر من مظاهر الحضارة، ان كان بالنسبة لطريقة الاستخدام او بناية الحمامات نفسها، وكأنها تعود الى القرن الماضي حيث أهلكتها الرطوبة، وكانت الحنفيات مستهلكة من طول فترة الاستخدام. وهنا علق احد الصبيان بالقول: انا انتظر دوري للدخول الى الحمام منذ الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا، وكل يوم نحن على هذا الحال. بينما قال الحدث (ف) البالغ من العمر ١٣ عاما، وكان يغسل ملابسه بعد ان سنحت له فرصة ذهبية لاستخدام حنفية فارغة، قام زميل له بحجزها مسبقا. سألنا الصبي لماذا تغسل ملابسك بيدك، ومن اين لك مسحوق الغسيل؟ أجاب: الجميع هنا يغسل ملابسه والادارة تعطي لكل سجين قليلا من مسحوق الغسيل وصابونة، ولا توجد غسالات. انا هنا في الدار منذ سبعة اشهر وكانت تهمتي الخطف، وانا لم افعل ذلك، انما اخي وأبي هما من قاما بالفعل، وعندما لم تستطع الشرطة القبض عليهما القوا القبض علي. بينما اشار مدير الدار نعيم نايف الى ان ادارة الدار قدمت عدة طلبات الى وزارة العمل من اجل بناء حمامات جديدة. وقد استحصلت الموافقات ونحن في طور البدء في الاشهر القادمة. وحاليا نحن نقوم بترميم اجزاء واسعة من الدار، اما بالنسبة الى الحمامات فهذه مشكلة ازلية، والان الفكرة تكمن في انشاء حمامات جديدة اضافة الى ترميم القديمة. الغسالات عاطلة منذ فترة من الوقت، ولكن حاليا كلف فريق عمل من مهندسين اختصاصيين يشرفون على صيانتها، واعادة تشغيلها. وحصة كل حدث متهم من مساحيق الغسيل مقررة من قبل وزارة العمل ووزارة التجارة، وهي ١٥٠ غم شهريا، ونحن نعتقد انها تكفي، وفي حالة حاجة الحدث الى مساحيق نجهزه اذاكان هناك زيادة في المخزون.